

بنصيب كبير في البحوث والمناقشة ، وهذا في ذاته دليل على حركة التغيير الاجتماعية البناءة التي تساهم فيها المرأة السودانية بقسط وافر . وقد جمع المؤتمر بين كثير من العلماء الذين ينتمون الى جنسيات مختلفة ومذاهب سياسية عديدة ، كان رائدهم جميعاً الاستفادة الى اقصى مدى من البحوث التي القيت في جو ساهه التعاون التام والمناقشات العميقة والنقد المتزن الهادئ .

عبدالله اخوي

عنوانه الحالي : لان « التقليد » (المحاكاة) قد يكون نفسه عاملاً من عوامل التغييرات الاجتماعية كما هو الحال في السودان وفي مختلف البلاد النامية التي تحاول تقليد الدول الصناعية في تقدمها العلمي والتكنولوجي ، اما « التقليد » فهو الذي يأتي من مقابلة التغييرات الاجتماعية .

كلمة اخيرة عن مؤتمر الخرطوم الذي القيت فيه بحوث هذه الكتب : كان لاشترك المثقفين من ابناء السودان بالبحوث والمناقشة والاستماع اثر كبير في نجاح المؤتمر . وقد اشتركت المرأة السودانية

الرسم عند العرب

Arab Painting,

by Richard Ettinghausen. Skira, Geneva, 1962.

في اوساط مؤرخي الفنون التقليديين . وليس من الانصاف لوم المثقف في الغرب على جهله بشؤون الرسم عند العرب ، او اخذ جهله هذا على انه نتيجة عداوة ثقافي : فاني اشك فيما اذا كان اطلاع المثقف العربي العادي على تراثه الفني وعلى المرميات اوسع من اطلاع قرينه الغربي . فعلى الرغم من النهضة الفنية في بعض العواصم العربية ليس هنالك في الحياة العربية ما يوحي بان ما يراه الانسان يشكل اية اهمية له . واعتقد ان معظم القراء العرب الذين ينظرون الى الرسوم في هذا الكتاب ينظرون اليها لاول مرة . ولا نستطيع ان نلومهم هم ايضاً ، لان الظروف المتناقضة التي واجهت الحضارة العربية والتي لم تواجه اية حضارة اخرى جعلت الاطلاع على الرسم العربي قبل صدور الكتاب الذي نحن

هذا الكتاب حدث اكبر مما يوحي به حتى مظهره الممتاز وسعره المرتفع (٢٢،٥٠ دولاراً) . ذلك لان معظم الناس يجهلون الرسم العربي جهلاً غريباً : فالمثقف العربي مطلع اطلاعا وافياً على الفنون اليابانية والفارسية والهندية لكنه يجد صعوبة كبيرة في ذكر اثر فني عربي واحد . وفي المتاحف الاوربية والامريكية تصنف الفنون العربية مع الفنون التركية - الفارسية والقبطية والاسبانية العربية تحت التسمية العامة « الفنون الاسلامية » . ويكاد يكون الكتاب الانكليزي الوحيد الذي يبحث في هذا الفن هو كتاب طوماس آرنولد « الرسم في الاسلام » الذي نشر في ١٩٢٨ . وهكذا فان اتفهوزن ، باستعماله لفظة الرسم « العربي » ، يكون قد ضرب بيجرة على وتر جديد واثار نقطة سميتج عنها لفظ كبير

روعة عنه عند اية امة اخرى في القرون الوسطى .
واذا تذكرنا ان الفنان العربي كان يعمل وهو
مكبل بقيود الدين، وان الوان الفن ، بل وانواع
المواضيع التي يصورها ، كانت محدودة جداً ، لم
يسعنا الا الاعجاب بقوة الدافع الخلاق عنده .

لقد وضعت ابحاث عديدة عن موقف الاسلام
التقليدي من الرسم والنحت دون ان تفسر اسبابه
بوضوح . وقد الملح الاستاذ صلاح ستيتيه في مقال
نشره اخيراً الحقيقة كان قد اكدها من قبله ماسينيون
وغيره من اصحاب الاختصاص ، بانه ليس هنالك
في القرآن اي منع للفنون المرئية : لكن بالرغم
من هذا تبقى الحضارة العربية اقل الحضارات
انتاجاً لتلك الفنون . ففي اوربا اخذت الكنيسة
الكاثوليكية المثاليين والرسميين والموسيقيين
والمعماريين تحت رعايتها، ولولا هذا لما ازدهر الفن
الاوربي ربما هذا الازدهار . وقد اصاب انتهموزن
عندما لفت نظرنا الى ان اهم ما في الرسوم العربية
ليس قلتها بقدر ما هو وجودها اطلاقاً .

فوجود رسوم عربية بالرغم من كل الظروف
التي ذكرتها تشهد على مدى تصميم العرب على
انتاج الفنون وتذوقها . وقد يكون ان الفن العربي
ذهب ضحية تلك العوامل المتضاربة التي تؤلف
شخصية العربي : تمسكه العميق بالدين وتمسكه
بالتجارة؛ ولكن من المعقول جداً ان التعليل
الصحيح لا قول الفن العربي هو الغزو المغولي وما
نتج عنه من تفكك وانحلال في الحياة الاجتماعية
والاقتصادية وتدهور في النظام السياسي . فالمجتمع
الفني والواثق من نفسه يجد طرقاً عديدة لتفثت من
القيود المفروضة عليه : فقد استطاعت بغداد في
القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، كما يخبرنا
المؤلف ، ان تتملص من هذه القيود بفضل قوة
البلاط ونفوذ طبقة التجار ، واستطاع الفنان في
تلك الفترة فيما ان يعمل في حرية نسبية وهو في
مأمن من عدوان المتطرفين ، كما كان امراء

بصدده امراً يكاد يكون مستحيلاً الا للباحث
الصابر المصمم على البحث والاستقصاء . واول
صعوبة واعظمها هي بكل بساطة صالة المواد وقلة
الانتاج نسبياً ، فقد ضاع واتف الكثیر مما انتج ،
والقليل الباقي غير محبوب ولا مؤرخ ، وهو فوق
ذلك مبثّر في جميع انحاء المعمورة وخصوصاً في
المتاحف الاوربية والامريكية . والبلاد العربية
نفسها لا تملك الا اجزاء يسيراً من تراثها الفني ،
ويندر ان توجد في البيوت العربية نسخ عن هذه
الرسوم : وبينما نجد نسخاً عن الآثار الغربية في
متناول اليد في الاسواق العربية ، يكاد يكون
متحف فيكتوريا والبريت في لندن احد الامكنة
القليلة حيث بإمكان المرء ان يجد نسخاً عن الرسوم
العربية . ومن المفارقات ان معظم الآثار الفنية
التي نجدها في العالم العربي اليوم لا تنتمي الى
الحضارة العربية بل الى ما سبقها من حضارات ،
كالاغريقية والرومانية والفرعونية والاشورية
والبابلية والفينيقية وغيرها .

فالواضح منذ البداية اذاً ان تلك التسمية
« الرسم عند العرب » هي في الواقع وصف لفن
لم يزدهر اكثر من قرن او اثنين ولم يتعد في
الواقع مرحلة التصوير . وانواع الرسوم التي على
المرء ان يعتمد عليها لدراسة فن الرسم عند العرب
وتقييمه قليلة ، قلة العينات الموجودة منها : مقدار
صغير من الفسيفساء وصور الحيطان (وجد معظمها
في قصور الصحراء ودارات الصيد في العهد
الاموي) ، وطاقنة من المخطوطات المزينة بالرسوم ،
وبعض النسخ المصورة من القرآن ، بالإضافة الى
الفسيفساء في الجامع الكبير في دمشق وفي باليرمو .
وتكاد تكون هذه هي العينات الرئيسية للفن
العربي ، اذا امتنينا النسيج والسيراميك ، وهما لا
يقعان ضمن اختصاص مؤلف هذا الكتاب . لكن
رسم هذا المجلد التي تفيض بالحوية والالوان تبرز
تبريراً كاملاً ادعاء المؤلف بان الرسم العربي لا يقل

حين الوجود ، جديرة بأن تتحدى مدارس عصر النهضة في اوربا . لكن الوضع السياسي المتقلب باستمرار ، واضطرار الفنان الى الهجرة من عاصمة الى عاصمة على الدوام ، جعلنا التطور المستمر يكاد يكون مستحيلا . وعلى الرغم من ان الفاطميين في مصر كانوا يمزجوا عن الخطر القولي فانهم لم يتمكنوا من انتاج فن يجاري الفن العباسي . وقد لا يكون من قبيل الصدف ان العراق ، وهو البلد العربي الذي انتج ام اللوحات واطرفها في الاونة الاخيرة ، كان هو الذي اقترب ايام العباسيين اكثر مما اقترب اي بلد آخر لان يكون مدرسة تصهر التجارب والتأثيرات الخارجية في اسلوب نستطيع بثقة ان ندعوه عربيا ، اسلوب مستقل فذ وذو خصائص واضحة تتميز بالهلية والاصالة .

والعقبة الاخيرة التي تقض مضجع مؤرخ الفنون الذي يأمل في دراسة تطور الاسلوب العربي هي ان الاعمال الفنية ينقصها في معظمها التاريخ الصحيح والتيقن من هوية صاحبها ومكانه . كما ان المادة التي جرى عليها القدماء في عدم تأريخ المخطوطات او في التغيير في تاريخ ما بغية اضاء مسحة القدم عليها ، مما يزيد الامر تعقيدا ويلقي المؤرخ في دوامة من الشك . لكن بالرغم من هذا فالحصائص العامة ظاهرة بوضوح ، وهي لا التفاصيل ما يهم الفارسي غير المتخصص .

ونظراً لما في موضوع الكتاب من صعوبات لا يسعنا الا نقدر المؤلف افلاحه في الابتعاد عن الجفاف والحذق . فهو يناقش الاسلوب العربي بالتفصيل (معالجة المدى والفراغ ، وثنيات الاثواب ، والجسم البشري ، وملامح الوجوه والايدي) دون ان يتيه في التفاصيل المقيمة التي تجعل كثيراً من الدراسات عن الفن صعبة ومزعجة للفارسي العادي . كما ان له من الاطلاع العميق الواسع على التاريخ العربي والثقافة العربية ما يمكنه من درس الفن في اطاره الاجتماعي الصحيح . وان تذوقه

سورية من قبل قد زينوا قصورهم بمجموعة مذهلة من الفسيفساء وصور الحيطان . لكن مجي المقول عام ١٢٥٨ حمل معه دمارا عظيما لم يكده ينجو منه شيء ، وكان من الجلي بان ذلك الفن الذي كان قائماً في بلاطات الامراء وقصور الاغنياء ، وبمعزل عن الشعب وثقافته الدينية ، لم يكن ليعيش طويلا بعد ان انهار اولياؤه .

يوضح اتشفوزن منذ البداية انه يستعمل لفظه « عرب » بمعناها العام ، فتشمل حضارة الامبراطورية التي ظهرت في القرون الوسطى والتي اخذت جذورها من الديانة الاسلامية والتي كانت تجمع شملها لحد بعيد اللغة العربية ، التي كانت لغتها الدينية ولغة الطبقة الحاكمة ولغة ادبها وعلومها وشعرها . وهو يعني بها علي وجه التحديد العراق والشام ومصر بالدرجة الاولى ومن ثم البقعة التي تمتد بين اسبانيا ومراكش غرباً والهضاب الايرانية في الشرق .

لكن صعوبة تقرير ما الذي تعنيه لفظه « الرسوم العربية » تتعدى الجغرافيا ، وذلك لانفتاح اهل تلك المنطقة الشاسعة ، ما قبل الفتح وما بعده ، على الحضارات الاخرى وخاصة الحضارة الهلينية والساسانية ؛ كما انه من الواجب علينا ان نذكر ان معظم الفنانين في اول عهد العرب بالفن كانوا من الاعاجم . وبوسع المرء ان يرى نتيجة هذا التفاعل والاختلاط الثقافي في متحفنا في بيروت ، حيث يجد عدداً من التوابيت الرخامية ، صنعها اغريقيون في صيداء في القرن العاشر ، حسب الطريقة المصرية ، وأعطى الفنانون فيها للرجال الفينيقيين الذين صورهم ملامح اغريقية .

وتشير الاثار الفنية التي انتجتها المدرسة العباسية في أوجها ، بما في هذه الاثار من جهد وثقة بالذات ، الى ان الفنان العربي كان يستطيع ان يصبح سيد فنه ويستفيد من المؤثرات المتضاربة التي تعرض لها لو أتيح له زمان وطعاً نينة كافيان لذلك . وكان لا بد والحالة تلك من ظهور مدارس اقليمية الى

بتقائس فن الرسم العربي ، التي يجب ان نأخذها بعين الاعتبار اذا اردنا ان نخرج بحكم متزن عليه ، وهي : عدم وجود اية وظيفة دينية له ، وانعدام الحس القنائي ، وغياب صور الاشخاص ، وفقدان المواضيع التاريخية والملمحة ، وعدم الاهتمام بالجسم البشري . فهل نقول ، اذ نقرأ هذه القائمة من التقائس ، ان فن الرسم عند العرب من الفنون الثانوية الالهية ؟ يقول اتنفوزن ان على الرسوم ان تتكلم عن نفسها ، وانها توحى بأحاسيس مختلفة للتفرجين المختلفين : اما انا فقد رأيت ان في افضلها اصالة وحيوية كانت تبشر بوعود هائلة ، وانها حتى بشكلها الحالي تجمل الرسوم الفارسية تبدو وقد بولغ كثيرا في قيمتها . ولا يسع المرء الا ان يتحسر على ما فقد ، وان يأمل ان يستوحي الفنانون العرب المعاصرون تلك الروح التي اذكت مواهب اسلافهم .

روزمري صايغ

الاصيل للرسم العربي ، وایمانه بقيمته ، يبعثان في كتابه حرارة ودفتاً دون ان يفسدا الروح العلمية فيه ، مما يجعله محبباً للقراء مستساغاً لديهم . وفي الفصل الاخير من الكتاب ، ولعله امتع فصوله ، يلخص اتنفوزن خصائص اسلوب الرسم العربي : فيصفه بأنه ذو حس بنائي قوي ، والوان جريئة ، وبأنه عديم الاهتمام بالجسم البشري ، ومعنىً بالايدي والوجوه ، وبناحية الزخرف والتزيق ، ومفوق في رسم اشكال الحيوانات . ثم يتطرق الى ذكر مواضيع الرسوم العربية ، ويركز على ثلاثة رئيسية منها وهي : فكرة الفخامة والسيطرة الكونية ، والاهتمام العلمي بطبيعة العالم المادي ، والناية بالكلام كشاط انساني - ويمثل عدد كبير جداً من الرسوم التي تبقت لنا هذا النشاط المفضل في مظاهره المختلفة ، كالتعليم والوعظ والنصح والالتباس بل (في حال ابي زيد) والمداهنة . ويذكرنا المؤلف في خاتمة مطافه

المرأة العربية ومشكلتها الجنسية

Le drame sexuel de la femme dans l'Orient Arabe,
par Youssef el Masry . Robert Lattout, Paris, 1962

بيد عن الدقة . فالكتاب في الواقع اثنان ، واحد يتحدث عن عادة تعاطي الحشيش في وادي النيل وما تؤول اليه من مساوئ ، ويمطي المؤلف تفسيرات لهذه العادة ؛ والثاني يصف باسهاب وضع المرأة من الناحية الاجتماعية والقانونية في العالم العربي ، او بالاحرى في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بالدرجة الاولى ومن ثم في الاردن وسوريا ولبنان .

قبل سنين ظهر للادبية والمفكرة الفرنسية سيمون ده بوفوار مؤلف ضخم حلت فيه ، بكثير من الوضوح وبقليل من روح الدعابة ، وضع المرأة عامية ولخصت فيه جميع وجهات النظر في كل مكان . اما كتاب الاستاذ يوسف المصري الذي نحن بصدده فليس اكثر من حاشية ذات لون محلي ، والعموان الذي اختاره له اعتمده فيه ولا شك ان يغري القارئ على شراء الكتاب ؛ لكنه عنوان